القَصِيدَةُ الدَّالِيَّةُ

فِي مَدْحِ الإِمَامِ يَحْيَىٰ بنِ مَعِينٍ
وَبيَانِ فَضْلِ عِلْمِ الجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ[1]

نَظْمُ الحَافِظِ:

أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المالكي الطليطلي

المعروف بـ: «ابن شقّ الليل»[2]

(٤٥٥هـ)

اعتنى بها

جمال الجيجلي

عفا الله عنه

---

(١) ذكرها عنه ابن خلفون (٦٣٦هـ) في كتابه: «المعلم بأسامي شيوخ البخاري ومسلم» عند ترجمة يحيى بن معين، وقد نقلتها من النسخة الخطية المحفوظة بالمكتبة الأزهرية برقم: (٩٠١٩)، (ق/ ١٠٥/ و – ق/ ١٠٧/ ظ).

(٢) «كان فقيها عالما، وإماما متكلما [عارفا بمذهب مالك] حافظا للحديث والفقه، قائما بهما، متقنا لهما، إلا أن المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر بمعانيه وعلله كانت أغلب عليه ... وكان أديبا شاعرا مجيدا لغويا، دينا فاضلا، كثير التصنيف والكلام على الحديث ... توفي -رحمه الله- بطلبيرة؛ يوم الأربعاء منتصف شعبان سنة خمس وخمسين وأربع مائة». [الصلة لابن بَشْكُوال (ص:٥١١)]، وينظر: إكمال الإكمال لابن نقطة (٣/ ٤٣٢)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ١٢٩).

قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المالكي الطليطلي

المعروف بـ: «ابن شِقِّ الليل»[(١)]:

[الطويل]

أَرَىٰ كُـلَّ ذِي جَهْـلٍ يُحَـدِّثُ نَفْسَـهُ ** بِـأَنِّي مُصِـيبٌ فِـي الْمَقَـالِ مُجِيـدُ
وَقَـدْ خَـاضَ فِيمَـا لَـيْسَ يَفْهَـمُ وَيْحَـهُ ** فَبِالْجَهْـلِ مَحْضًـا يَبْتَـدِي وَيُعِيـدُ
كَـ«بَكْـرِ بِـنِ حَمَّـادٍ» تَـرَنَّمَ وَحْـدَهُ ** فَقُلْـتُ مُجِيبًـا: وَيْـكَ أَيْـنَ تُرِيـدُ؟
جَهِلْـتَ طَرِيـقَ الْجَـرْحِ وَالْفَـرْقَ بَيْنَـهُ ** وَبَـيْنَ اغْتِيَـابِ النَّـاسِ وَهْـوَ بَعِيـدُ
فَغِيبَـتُهُمْ ذِكْـرُ الْعُيُـوبِ تَنَقُّصًـا ** عَلَـى غَيْـرِ دِيـنٍ، شَـامِتٌ وَحَسُـودُ
وَأَمَّـا إِذَا أَخْبَـرْتُ عَـنْهُمْ نَصِـيحَةً ** وَتَحْصِـينَ دِيـنٍ، وَالْإِلَـٰهَ أُرِيـدُ
فَتَجْـرِيحُ أَهْـلِ الْجَـرْحِ لَا شَـكَّ جَـائِزٌ ** شَـبِيهًا بِقَـاضٍ قَـدْ أَتَـاهُ شَـهِيدُ
فَفَـتَّشَ عَـنْ تَعْدِيلِـهِ لِيُجِيـزَهُ ** فَقَـالَ ثِقَـاتٌ: إِنَّـهُ لَفَنِيـدُ
وَمَسْـخُوطُ أَحْـوَالٍ، وَغَيْـرُ مُعَـدَّلٍ ** وَلَا مُرْتَضَـى؛ فَـارْدُدْهُ وَهْـوَ شَـرِيدُ
فَلَـوْ كَـانَ هَـذَا غِيبَـةً مَـا أَجَـازَهُ ** جَمِيـعُ الْـوَرَى وَالْعَـالَمُونَ شُـهُودُ
وَلَا قَـالَ خَيْـرُ الْخَلْـقِ: «هَـذَا وَصَـحْبُهُ ** مِـنَ الـدِّينِ مُـرَّاقٌ»[(٢)]، «وَذَاكَ فَقِيـدُ

(١) «يذكر فضل يحيى بن معين، ويرد على بكر بن حماد التاهرتي (ت٢٩٦هـ) -نسبة إلى تيهرت أو تيارت بالجزائر- في قوله:

ولابـن معـين فـي الرجـال مقالـة ** سيسـأل عنهـا والمليـك شـهيد
فـإن يـك حقـا مـا يقـول فغيبـة ** وإن يـك زورا فالقصـاص شـديد
فكـم مـن حـديث للرسـول أماتـه ** وشـيطان أصـحاب الحـديث مريـد»

وقد ردَّ على هذه المقالة جمع من الحفاظ قبل الناظم -رحمه الله-، وذكر طرفا منها الحافظ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ١٠١٦).

(٢) يشير إلى حديث ذي الخويصرة التميمي، وفيه قوله ﷺ: «إِنَّ لَهُ أَصْحَابًا ... يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» الحديث. رواه البخاري (٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مِنَ الْمَالِ صُعْلُوكٌ، وَلَيْسَ بِوَاضِعِ ** عَصَاهُ»[٣]، «وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرِ»[٤] مُرِيدُ

وَتَبْيِينُ أَحْوَالِ الرُّوَاةِ وَمَيْزُهُمْ ** فَحِصْنٌ حَصِينٌ لِلْعُلُومِ مَشِيدُ

وَحِرْزٌ، وَحِفْظٌ، وَاحْتِيَاطٌ، وَمَلْجَأٌ ** وَسَيْفٌ لِدَاءِ الْمُلْحِدِينَ حَدِيدُ

فَهَلْ يَسْتَوِي: عِلْمٌ، وَحِفْظٌ، وَفِطْنَةٌ ** وَوَهْمٌ، وَسَهْوٌ، وَالْفُؤَادُ بَلِيدُ؟!

وَمَنْ كَانَ بِدْعِيًّا، وَكَانَ مُدَلِّسًا ** وَصَحَّفَ مَا يَرْوِي وَظَلَّ يَزِيدُ

عَلَى مَا رَوَى الْأَعْلَامُ طُرًّا، وَقَدْ أَتَى ** بِكُلِّ شُذُوذٍ لِلْأَنَامِ يَكِيدُ

وَأَوْرَدَ إِسْنَادًا عَلَى غَيْرِ مَتْنِهِ ** وَقَالَ: «بُرَيْدًا» وَالصَّوَابُ: «بَرِيدُ»

وَلَمْ يَدْرِ مَنْ «فِهْرٌ» وَ«فَهْدٌ» وَنَحْوُهُمْ ** وَقَالَ: «عُبَيْدًا»، وَالصَّوَابُ: «عَبِيدُ»

وَقَالَ: «سُلَيْمًا» في «سَلِيمِ بِنِ صَالِحٍ» ** وَقَالَ: «أُسَيْدًا» وَالصَّوَابُ: «أَسِيدُ»

وَجُرِّبَ مِنْهُ الْوَهْمُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ** وَكَانَ كَذُوبًا وَالْأَنَامُ شُهُودُ

فَمَا كَشْفُ هَذَا غِيبَةٌ بَلْ دِيَانَةٌ ** وَمَا هُوَ إِلَّا فِي الظَّلَامِ وَقِيدُ

يُثَابُ عَلَيْهِ الْأَجْرَ مَنْ كَانَ نَاصِحًا ** وَحَارِسَ عِلْمٍ، وَالْإِلَهَ يُرِيدُ

وَقَدْ أَجْمَعَ [الْأَعْلَامُ] طُرًّا وَجَرَّحُوا ** كَمَا عَدَّلُوا قِدْمًا وَأَنْتَ فَقِيدُ

وَلَمْ يَجْمَعِ الرَّحْمَنُ أُمَّةَ أَحْمَدٍ ** عَلَى ضِدِّ حَقٍّ لِلصَّوَابِ عَنِيدُ

وَقَدْ طَالَبَ الرَّحْمَنُ فِي نَصِّ وَحْيِهِ ** بِتَعْدِيلِ مَنْ يَأْتِيكَ وَهْوَ شَهِيدُ

وَتَعْدِيلُهُمْ لَا شَكَّ تَجْرِيحُ ضِدِّهِمْ ** فَيَا «بَكْرُ» قُلْ لِي: أَيْنَ أَيْنَ تُرِيدُ؟

فَمَا يُنْكِرُ التَّجْرِيحَ إِلَّا مُجَرَّحٌ ** وَ«يَحْيَى» فَيَزْهُو فَضْلُهُ وَيَزِيدُ

وَقَدْ سَلَّمَ الرَّاوُونَ طُرًّا لِقَوْلِهِ ** وَأَمْثَالُهُ فِي الْعَالَمِينَ عَدِيدُ

فَقَدْ جَرَّحُوا قِدْمًا بِحَقٍّ تَدَيُّنًا ** وَأُخْزِيَ فِيهِمْ مَارِقٌ وَمَرِيدُ

وَقَدْ قَالَ يَحْيَى -وَهْوَ يُظْهِرُ عُذْرَهُ-: ** إِلَٰهِي أَجِبْنِي أَنْتَ أَنْتَ وَدُودُ

فَإِنْ كَانَ قَوْلِي حِسْبَةً وَدِيَانَةً ** فَجُدْ بِمَمَاتِي رَبِّ أَنْتَ مَجِيدُ

---

(٣) يشير إلى حديث فاطمة بنت قيس حين خطبها معاوية وأبو جهم -رضي الله عنهم-، وفيه قوله ﷺ: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ؛ لاَ مَالَ لَهُ» الحديث، رواه مالك (٢١٥٥)، ومن طريقه مسلم (١٤٨٠) وغيره.

(٤) يشير إلى قوله ﷺ -لما استأذن عليه رجل-: «ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ، أَو ابْنُ العَشِيرَةِ» الحديث، رواه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بِأَفْضَلِ أَرْضٍ فِي الْبِلَادِ وَخَيْرِهَا ** فَيَعْلَمَ صِدْقِي شَامِتٌ وَحَسُودُ

فَجَاءَ إِلَى قَبْرِ النَّبِيءِ يَزُورُهُ ** فَمَاتَ بِهَا وَالْعَالَمُونَ شُهُودُ

وَغُلِّقَتِ الْأَسْوَاقُ مِنْ أَجْلِ مَوْتِهِ ** وَجَاءَتْ جُمُوعٌ مَا لَهُنَّ عَدِيدُ

وَجُهِّزَ فِي نَعْشِ النَّبِيءِ مُكَرَّمًا ** إِلَى لَحْدِهِ إِذْ بَانَ وَهْوَ حَمِيدُ

وَنَادَوا: أَلَا هَذَا نَفَى عَنْ نَبِيِّنَا ** حَدِيثَ كَذُوبٍ فِي الْعُلُومِ يَزِيدُ(٥)

وَشَاهَدَ بَعْدَ الدَّفْنِ مِنْهُ رَفِيقُهُ ** عِيَانًا رَسُولًا قَدْ رَآهُ يَعُودُ

إِلَى قَبْرِهِ فَارْتَاعَ إِذْ غَاصَ دَاخِلًا ** فَآبَ وَقَالَ: الْخَيْرَ وَيْكَ أُرِيدُ

أَنَا مَلَكٌ أُرْسِلْتُ فِي أَمْرِ لَحْدِهِ ** فَوَسَّعْتُهُ فَاعْلَمْهُ فَهْوَ مَهِيدُ

فَمَنْ كَانَ سُنِّيًّا وَكَانَ جَمَاعِيًا ** تُوَسَّعُ مِنْهُمْ فِي الْقُبُورِ لُحُودُ

فَنَاهِيكَ فَضْلًا وَاسْتُجِيبَ دُعَاؤُهُ ** وَمَاتَ غَرِيبًا وَالْغَرِيبُ شَهِيدُ

وَأَيْقَنَ أَهْلُ الْعِلْمِ طُرًّا بِفَضْلِهِ ** وَمَا زَالَ «يَحْيَى» يَعْتَلِي وَيَسُودُ

وَ«يَحْيَى» إِمَامٌ فِي الْعُلُومِ مُبَرَّزٌ ** جَلِيلٌ عَظِيمٌ فَضْلُهُ وَمَدِيدُ

تَمَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ

***

---

(٥) ينظر: تاريخ بغداد (١٦/ ٢٦٣).